دور يهود الدونمة في انهيار الدولة العثمانية

أ.م.د. ألهام محمود كاظم
جامعة الكوفة/ كلية التربية للبنات

يهود الدونمة: الأصل والنشأة

الدونمة "Donmeh " كلمة تركية مركبة من جزأين " دو" بمعنى اثنين (فارسية الأصل) و" نمة " بمعنى نوع ومعنى الكلمة الفرقة القائمة على نوعين من الأصول: النوع اليهودي والنوع الإسلامي، وقد أطلق الأتراك على اليهود المتظاهرين بالإسلام عبارة دونمة وهي مصدر مشتق من فعل دونمك أي عاد ورجع أما المصدر منه فيعني المرتدون عن دينهم(١).

بدايات ظهور اليهود في الدولة العثمانية

كانت البدايات الأولى للتواجد اليهودي في البلاد العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني الذي تزوج من جارية روسية الأصل يهودية على قدر كبير من الجمال تدعى روكسلانة (اسمها الحقيقي خرم) ومعناها الباسمة فأنجبت له ولدين هما سليم الثاني وبايزيد. ونجحت في إفساح المجال لولديها بولاية العهد على اثر قتل مصطفى الابن الأكبر للسلطان من أمه الشركسية(٢).

ولكن هل لـ روكسلانة دور في دخول اليهود البلاد الخاضعة للدولة العثمانية ؟

للإجابة على هذا السؤال لابد من دراسة محاولات روكسلانة في إقناع زوجها السلطان في السماح لليهود الفارين من اسبانيا على اثر اعلان محاكم التفتيش هناك بمعاقبة اليهود(٣). وعلى الرغم من الانتصارات التي حققها السلطان القانوني وعقده الكثير من المعاهدات، إلا إن عهده عد البداية الأولى لانهيار الدولة العثمانية بسبب ما قامت به روكسلانة من دسائس ومؤامرات قضت من خلالها على السلطان وبذرت الفتنة بين الآباء والأولاد فكان أحفادها أسوء خلف لأسوء سلف ومؤامرتها بقتل الصدر الأعظم إبراهيم باشا وتولية زوج ابنتها رستم باشا المنصب، ثم استطاعت بما لديها من نفوذ لدى زوجها السلطان إدخال اليهود للدولة العثمانية فعاثوا فيها فسادا خاصة بعد ظهور فئة جديدة سموا يهود الدونمة الذين تمتعوا بالاستقلال والمكانة العليا في حاشية السلطان العثماني(٤).

والسؤال الذي يطرح نفسه من هو المؤسس الحقيقي ليهود الدونمة ؟

يعد سباتاي زيفي المؤسس الحقيقي ليهود الدونمة الذي استغل بعض النصوص الدينية العبرانية التي تدعوا إلى ظهور مسيح جديد في عام ١٦٤٨ يحكم العالم آخر الزمان متخذا من نفسه المسيح المنتظر الذي يتخذ من القدس عاصمة للدولة اليهودية، فصدقه عدد كبير من اليهود وانهالت عليه الوفود من ألمانيا وصوفيا وادرنة وأطلق عليه ملك الملوك. وعين أبراهام نطحان يهودي الأصل رسوله إلى الناس(٥). وللتعريف بهذه الشخصية نقول:

هو شخصية يهودية من أصل اسباني أبن السمسار اليهودي موردخان زيفي المعروف بين الأتراك باسم " قرة منتشة" ولد بمدينة أزمير غرب الأناضول عام ١٦٢٦ من أم يهودية، هاجروا من اسبانيا إلى تركيا مستغلين سياسة التسامح الديني التي أعلنتها الدولة العثمانية(٦). وأصبح حاخام مدينة أزمير اثر تعلمه التوراة والتلموت(٧) على يد أستاذه إسحاق دلبع، وقد استنبط من النصوص العبرانية حسب منهج القبالا (الكابالا "Kabbalah ")(٨) إن ظهور المسيح سيكون عام ١٦٤٨ فأعلن نفسه مسيحيا وهو بعمر الثانية والعشرين وقد عده حاخامات أزمير بأنه مختل العقل ومعتل الصحة والمزاج فابتعدوا عنه ولم يصدقوه، وحاولوا الوشاية عنه للسلطان العثماني الذي أمر باتخاذ التدابير لمقاومة التكتل اليهودي فسجنته في سجن زندان قابو باستانبول سنة ١٦٦٦ بتهمة ادعاء النبوة(٩)، ثم سيق إلى مدينة أدرنة للمحاكمة التي حضرها وكيل الصدر الأعظم " مصطفى باشا وشيخ الإسلام منقاري زاده يحي أفندي وإمام السلطان الواعظ محمد أفندي الواني كما حضرها رئيس الأطباء حياتي زاده مصطفى أفندي وهو يهودي مسلم يتكلم الاسبانية فاختير مترجما له، وانتهت المحاكمة

بالأمر بإعدامه لولا رأي المترجم الذي طلب منه أن يعلن إسلامه فوافق وأعلن إسلامه فعفى عنه السلطان الذي كان يراقب مجريات المحكمة من وراء حجاب وأطلق سراحه[١٠]. وبدأت مراسيم إسلامه بتبديل اسمه فصار محمد عزيز أفندي واغتسل ونطق بالشهادتين ولبس الجبة والعمامة وعين رئيس البوابين في القصر السلطاني براتب قدره مائة وخمسون أوقية فضية شهريا. وتجدر الإشارة إلى إن ساباتاي أرسل نشرة إلى أتباعه قال فيها[١١]:

" جعلني يهوه مسلما أنا أخوكم محمد البواب هكذا أمرني فأطعت ".

وبما أن الكتب اليهودية تقول إن المسيح سيتبعه المسلمون أكد على أن:

"كيان ساباتاي القديم صعد إلى السماء وبأمر من يهوه ترك ملكا يستمر في كونه المسيح ولكن تحت جبة وعمامة"[١٢].

وبناء على طلب تقدم به ساباتاي إلى الحكومة العثمانية بدعوة اليهود إلى الإسلام، فوافقت ودخل الإسلام عدد كبير من اليهود المبطنين باليهودية، إذ يؤدون الشعائر الدينية الإسلامية الظاهرة من صوم وحج ودخول المسجد ولكل واحد منهم اسمان اسم يهودي خاص وأخر إسلامي رسمي عام، وفي نفس الوقت استمروا في المحافظة على عاداتهم الخاصة من لباس وأعياد وشعائر تقام باللغة الاسبانية اليهودية ولهم المدارس والمقابر الخاصة به. وبسبب التقارير التي كانت ترفع من إدارة الأمن العثماني حول الأفكار الخطيرة التي كان يحملها هؤلاء وكيدهم للإسلام، اتضح للحكومة العثمانية وبعد أكثر من ١٠ سنوات أن إسلام سباتاي كان خدعة الهدف منه ضرب الإسلام من الداخل[١٣].

وفي زمن السلطان محمد الرابع سيق سباتاي إلى قصر السلطنة القديم في أدرنة للمحاكمة فنفته إلى مدينة دولكون "Dolcigno " بألبانيا ومات فيها بتاريخ ٣٠ أيلول عام ١٦٧٥ [١٤].



سباتاي زيفي في عام ١٦٦٥

دورهم في انهيار الدولة العثمانية:

شهدت السنوات السابقة لتولي السلطان عبد الحميد الثاني الحكم، سيطرة الماسونية اليهودية على مقدرات الدولة العثمانية وسياستها منها على سبيل المثال محاولات وزير الخارجية مصطفى رشيد باشا الذي أصدر تشريعات في أواخر عهد السلطان محمود الثاني عام ١٨٣٩ على تشجيع الأقليات في الدولة العثمانية على المطالبة بالانفصال عن الدولة كما أصدر تشريعات أخرى تدعوا إلى الدعوة إلى التغريب تحت مصطلح " الإصلاح " ورغم إن تشريعاته جوبهت بالرفض من قبل علماء الدين وطرده من الحكومة عام ١٨٤١ إلا انه استطاع العودة مرة أخرى عام ١٨٤٥ لتولي منصب رئاسة الوزراء ولم يعزل إلا في عام ١٨٥٨[١٥]. واستمرت التشريعات البعيدة عن الشريعة الإسلامية في عهد كل من السلطان عبد المجيد الأول وأخيه السلطان عبد العزيز منها تلك التي أصدرها مدحت باشا الذي كان ماسونيا من يهود الدونمة، واستطاع أن يصل إلى منصب الصدر الأعظم " رئيس الوزراء " في الدولة العثمانية ويخطط لقتل السلطان عبد العزيز اثر

محاولة الأخير العودة إلى اعتماد الشريعة الإسلامية في الحكم، وتولية مراد الخامس ابن السلطان عبد المجيد الأول الذي كان عضوا في المنظمات الماسونية اليهودية متشبعا بمبادئهم البعيدة عن الشرع الإسلامي[١٦]. ونتيجة الفتوى التي أصدرها شيخ الإسلام حسن خير الله بجواز عزله وإلقاء القبض عليه فأمضى بقية حياته في قصر جراغان. وتولى الخلافة من بعده السلطان عبد الحميد الثاني الذي اجبر في بداية حكمه الاستجابة لكل الإصلاحات والتعديلات الممهدة لإعلان النظام الجمهوري خاصة إذا علمنا إن النفوذ الماسوني أصبح قويا في القصر والدولة[١٧].

وفي هذا المجال يؤكد السلطان عبد الحميد في مذكراته أهداف مدحت باشا الماسونية حين قال:

"لقد وجدت مدحت باشا ينصب نفسه آمرا ووصيا على، وكان في معاملته بعيدا عن المشروطية – الديمقراطية– وأقرب إلى الاستبداد"[١٨].

بقي أن نشير إلى النتائج الخطيرة لتواجد المحافل الماسونية الأجنبية داخل الدولة العثمانية، واحتضانها حركة الاتحاد والترقي وهي في مرحلة المعارضة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني. وان الثورة التي أنجزوها كانت نتاج عمل مدينة واحدة وهي مدينة سلانيك إذ نمت وترعرعت فيها "جمعية الاتحاد والترقي"[١٩].

وسأحاول أن أعطي لمحة عن هذه الجمعية التي قضت على حكم عبد الحميد الثاني:

أسست جمعية الاتحاد والترقي في مدينة سالونيك عام ١٨٨٩ على يد أحد اليهود السبتائيين ويدعى باروخ لوي وانعقد أول اجتماع لها بالمجمع الماسوني بسالونيك، وقد قامت هذه الجمعية بعزل السلطان عبد الحميد الثاني لرفضه بيع فلسطين لليهود، ثم سجن السلطان المخلوع في بيت لأحد اليهود بسالونيك [٢٠]. وقد كان لليهود دوراً كبيراً في المذابح الأرمينية بشرق الأناضول، ثم إن الأمر الخطير هو أن هؤلاء السبتائيين الذين تولوا مناصب عالية في المؤسسة العسكرية العثمانية كانوا قد أقنعوا السلطان محمد رشاد بالدخول في حرب خاسرة إلى جانب ألمانيا وإيطاليا، أضعف الدول الأوروبية، وقد خسرت قوات المحور الحرب واحتل الحلفاء كامل أراضي الدولة العثمانية وحاصروا العاصمة إستانبول. وقبلها بسنوات لاحظ العرب فساد البلاط العثماني وهيمنة اليهود عليه فاختاروا الانفصال عن الدولة العثمانية دولة اليهود لا دولة الخلافة. إذ كان الخليفة لعبة بين يدي السبتائيين لا يعلم ما يجري خارج القصر، بل كان منصبه شرفياً لكسب ولاء الشعب [٢١].

ومن الجدير بالذكر إن السفير البريطاني" كيرزن " قال لرئيس وزراء تركيا عصمت اينونو لما طالبه باستقلال البلاد عند عقد مؤتمر الصلح عام ١٩٢٢:

" إننا لانستطيع أن ندعكم مستقلين، لأنكم ستكونون نواة يتجمع حولها المسلمون مرة أخرى، فتعود المسألة الشرقية التي عانينا منها كثيرا " [٢٢]. ٢٢٢

وفي عام ١٩٢٣م أعلنت الجمعية الوطنية التركية قيام الجمهورية في تركيا، وانتخبت مصطفى كمال أول رئيس لها" المولود في سالونيك في قصر أحد الأغنياء اليهود السبتائيين " بعد تعهده لبريطانيا بالموافقة على كل شروطها ومنها[٣٢]:

١- أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام.
٢- أن تقوم بإلغاء الخلافة.
٣- أن تتعهد بالقضاء على كل حركة يمكن أن تقوم لإحياء الخلافة.
٤- وضع دستور علماني وصياغة القوانين الوضعية محل القوانين الإسلامية.

وتظاهر بالاحتفاظ مؤقتا بالخلافة. فاختير عبد المجيد بن السلطان عبد العزيز خليفة، بدلا من محمد السادس الذي غادر البلاد على بارجة بريطانية إلى مالطة، ولم يمارس السلطان عبد المجيد أي سلطات للحكم[٢٤].

وفي عام ١٩٢٤م قدم مصطفى كمال أعظم هدية للغرب، وهي إلغاء الخلافة، التي كانت في اعتبار المسلمين جميعا عقدة الصلة والرابطة الوثيقة، بحسبانها قوة خاصة لهم في مواجهة الغزو الغربي، والصهيوني. وإخراج السلطان عبد

المجيد من البلاد، وأعلن دستورا جديدا لتركيا، وبدأ حكم كمال أتاتورك كرئيس للجمهورية التركية رسميا(٢٥). فأثار بذلك موجة من الاستياء الشديد عمت العالم الإسلامي وبسقوط الخلافة بدأت تركيا تنقل بقوة على يد أتاتورك إلى الانسلاخ من العالم الإسلامي بإعلان علمانية الدولة، وتغيير كل الرموز الإسلامية، مثل إلغاء الشريعة الإسلامية وإغلاق بعض الجوامع وهدموا البعض الآخر، وأرغموا الناس على الصلاة باللغة التركية في البقية المتبقية من الجوامع التي يرفع فيها الأذان بالتركية، ، وإعلان سفور المرأة بدلاً عن الحجاب، وإلغاء الأوقاف الإسلامية، وكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية بدلاً من الحروف العربية لإنشاء جيل يعجز عن قراءة القرآن من جهة وقطع الشعب عن أصوله الشرقية الإسلامية من جهة أخرى(٢٦).

الاستنتاج

من خلال ذلك يتضح إن حركة (يهود الدونمة) حركة سياسية موجهة ضد الدولة العثمانية، أكبر من كونها حركة دينية، وكان لها إسهامات عديدة في هدم الخلافة عن طريق:

١- هدم القيم الإسلامية في المجتمع العثماني والعمل على نشر الإلحاد والأفكار الغربية والدعوة لرفع الحجاب والاختلاط بين الرجال والنساء خاصة في المدارس والجامعات.

٢- أسسوا المحافل الماسونية داخل الدولة العثمانية، واستخدموا شعارات خادعة مثل الحرية ومكافحة الاستبداد ونشر الديمقراطية؛ لاجتذاب البسطاء وترويح الأفكار الهدامة.

٣- إن استاباي زيفي أول من نادى باتخاذ فلسطين وطن قومي لليهود، ويعتبر المؤسس الحقيقي للصهيونية العالمية، وذلك قبل (تيودور هرتزل) بثلاثة قرون.

٤- قام يهود الدونمة بدور فعّال في نصرة القوى المعادية للسلطان عبد الحميد، والتي تحركت من (سلانيك) لعزله، وهم الذين سمموا أفكار الضباط للشباب وتغلغلوا داخل صفوف الجيش.

٥- قام اليهود بالتأثير في جمعية الاتحاد والترقي، تحكموا فيهم وحركوهم كالدمى حتى ينفذوا مخططهم في عزل السلطان عبد الحميد وتطبيق الدستور العلماني.

الهوامش

١- أحمد نوري ألنعيمي، اليهود والدولة العثمانية، القاهرة، ٢٠٠١، ص ٣٤.

٢- عبد الله التل، الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٢٩.

٣- المصدر نفسه، ص٣٣.

٤- منصور عبد الحكيم، عبد الحميد الثاني المفترى عليه، القاهرة، ٢٠١٠، ص١٠٩.

٥- أحمد نوري ألنعيمي، اليهود والدولة العثمانية، المصدر السابق، ص٣٧.

٦- عبد الرحمن البوسري، اليهودية والماسونية، القاهرة، ١٩٩٩، ص١٢.

٧- التلموذ: تفسيرات وايضاحات للتوراة (أقوال الخامات) ومنزلتها لدى اليهود أرفع من منزلة التوراة. للتفاصيل انظر: رشيد الخيون، الأديان والمذاهب بالعراق، لندن، ٢٠٠٢، ص٣١٣.

٨- ثريا شاهين، دور الكنيسة في الدولة العثمانية، ت محمد حرب، استانبول، ١٧٩٧، ص ١١٨.

٩- عبد الرحمن البوسري، اليهودية والماسونية، مصدر سابق، ص٣٢.

١٠- منصور عبد الحكيم، عبد الحميد الثاني المفترى عليه، مصدر سابق، ص١١٢.

١١- المصدر نفسه.

١٢- أحمد نوري النعي مي، يهود اللدونمة، مصدر سابق، ص٤٤.

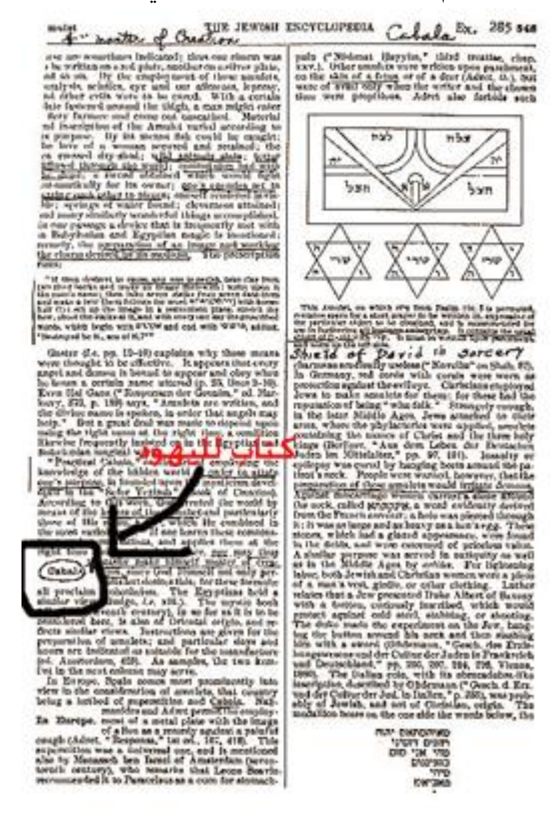
١٣- محمد حرب، مذكرات السلطان عبد الحميد، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٩٢.
١٤- مصطفى خوران، اسرار الانقلاب العثماني، ت خوجه، استانبول، ٢٠٠٠، ص ٦٣.
١٥- مفيد الزيدي، العصر العثماني، عمان ٢٠٠٣، ص٢٥٥.
١٦ منصور الحكيم، عبد الحميد، مصدر سابق، ص ٤٠٢.
١٧- المصدر نفسه.
١٨- محمد حرب، مذكرات السلطان عبد الحميد، ص١٢١.
١٩- جمعية الإتحاد والترقي: *بالتركية:* (İttihad ve Terakki Cemiyeti) تأسست في بادئ الأمر تحت اسم "جمعية الاتحاد العثماني" *(بالتركية: İttihad-ı Osmanî Cemiyeti)* في ١٨٨٩ من قبل طلبة طب بينهم "إبراهيم ساتروفا" و"عبدا لله جودت". وهي حركة معارضة و"أول حزب سياسي" في الإمبراطورية العثمانية. تحولت إلى منظمة سياسية على يد "بهاء الدين شاكر" ولتضم أعضاء تركيا الفتاة في ١٩٠٦ خلال فترة انهيار الإمبراطورية العثمانية.
٢٠- منصور عبد الحكيم، السلطان عبد الحميد، مصدر سابق، ص ٤٤٦.
٢١- زكريا سليمان بيومي، قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، القاهرة، ١٩٩٨، ٤٣.
٢٢- منصور عبد الحكيم، السلطان عبد الحميد، مصدر سابق، ص٤٥٥.
٢٣- نوري احمد ألنعيمي، الحركة الإسلامية الحديثة في تركيا، القاهرة، ٢٠٠٠ ص ٢٣.
٢٤- المصدر نفسه، ص٢٥.
٢٥- منصور عبد الحكيم، السلطان عبد الحميد، مصدر سابق، ص٤٥٦.
٢٦- المصدر نفسه، ص ٤٥٧.

المصادر

١- ثريا شاهين، دور الكنيسة في الدولة العثمانية، ت محمد حرب، استانبول، ١٧٩٧.
٢- رشيد الخيون، الأديان والمذاهب بالعراق، لندن، ٢٠٠٢.
٣- زكريا سليمان بيومي، قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، القاهرة، ١٩٩٨.
٤- عبد الله التل، الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام، القاهرة، ٢٠٠٠.
٥- عبد الرحمن البوسري، اليهودية والماسونية، القاهرة، ١٩٩٩.
٦- نوري احمد ألنعيمي، الحركة الإسلامية الحديثة في تركيا، القاهرة، ٢٠٠٠.
٧- منصور عبد الحكيم، عبد الحميد الثاني المفترى عليه، القاهرة، ٢٠١٠.
٨- مصطفى خوران، اسرار الانقلاب العثماني، ت خوجه، استانبول، ٢٠٠٠.
٩- محمد حرب، مذكرات السلطان عبد الحميد، القاهرة، ١٩٩٨.
١٠- *مفيد الزيدي*، العصر العثماني، عمان ٢٠٠٣.

•جوزيف بيلوسوف: وهو خليفة سباتاي ووالد زوجته الثانية، كان يتحرك باسم عبد الغفور أفندي
•مصطفى جلبي رئيس فرقة قاش وهي من ضمن ثلاث فرق تفرعت عن الدونمة وهم اليعاقبة والقاقاشية والقاباتجية.
•ليس لهم مؤلفات مطبوعة ومتداولة ولكن لهم نشرات سرية كثيرة يتداولونها فيما بينهم.

وهذه صورة لكتابهم المقدس وصورة للصفحه التي ذكرت فيها الكابالا



عباس، أميل، القبالة والسحر اليهودي، مكتبة السائح، طرابلس – لبنان، ٢٠٠٥، ص ٩-١٠.

هامش:

القبالة كلمة مشتقة من الجذر العبري قبلة Qibel ومعناها الحرفي التلقي والقبول، أي الاستلام بالتقليد الشفوي ونشأ المذهب في القرن السابع واستمر حتى القرن الثامن عشر الميلادي

الشركس/ شعب قديم أصلهم من بلاد القفقاس الواقعة بين الشاطئ الشرقي للبحر الأسود والشاطئ الغربي لبحر قزوين.